

الفصل الثالث

الإعلام المقاوم للسلطة

١ - الإعلام فى مواجهة السلطة

فى مواجهة الدور الذى يقوم به الإعلام كأداة للسلطة فى النظم السلطوية، استخدم الإعلام من قبل بعض الجماعات الرافضة للنظام السياسى القائم، كأداة لمقاومة السلطة، وذلك عن طريق التشكيك فى شرعيتها والطعن فى سياساتها وأعمالها، والسعى لإزالتها بهدف إقامة سلطة جديدة، فإذا ما تمكنت إحدى هذه الجماعات المعارضة من قلب السلطة القائمة والحلول مكانها، سرعان ما تستخدم الإعلام كأداة فى تثبيت سلطتها الجديدة، وهكذا دواليك.

وهذه الآلية فى تغيير السلطة، وبالتالى فى استخدام الإعلام كأداة لها، ارتبط بطبيعة النظم السياسية السلطوية التى تقوم على عدم الاعتراف بحق المعارضة فى الوجود، وبالتالى لم تسمح بأية فرص للتعبير لمن يختلفون معها، فالاختلاف مع السلطة يعنى العداء معها، لذلك لم يكن أمام من يعارضون السلطة من سبيل إلا السعى لإزالتها.

ورغم أن العصور القديمة لم تترك لنا شواهد كثيرة باقية على الإعلام المقاوم للسلطة، وأن معلوماتنا عن هذا الإعلام فى مرحلة الإعلام الشفوى تكاد أن تكون معدومة، إلا أننا نستطيع أن نتلمس بعض الشواهد من مرحلة الإعلام الخطئى، مع ملاحظة أن السلطة الحاكمة فى تلك الأزمان كانت تحرص على إعدام كل أثر للإعلام المقاوم، ونستطيع أن نتبين النشاط الإعلامى المقاوم للسلطة من خلال الحالات التى نجح فيها هذا الإعلام فى تغيير السلطة، كذلك نستطيع أن نتعرف عليه من خلال السوابق التى تكشف عن اضطهاد السلطة للإعلام المقاوم ويبرز

دور هذا الإعلام في حالات الاضطراب السياسى والاجتماعى، خاصة تلك التى ترتبط بتحد للسلطة القائمة؛ حيث يقوم الإعلام المقاوم بدور كبير فى تعبئة مشاعر الناس ضد السلطة، وهناك مؤشرات على دور كبير للإعلام المقاوم فى عصر الأسرات الفرعونية وأن هذا الإعلام لعب دوراً رئيسياً فى معظم الاضطرابات السياسية التى جرت فى ذلك العصر وغالباً ما قاده رجال الدين الذين كان لهم نفوذ كبير فى المجتمع المصرى فى العصر الفرعونى، وتسجل إحدى البرديات تعليمات وأوامر من فرعون تحذر الشعب من الدعايات المغرضة، وتهدد بالعقاب من يخالف هذه الأوامر والتعليمات ويستمتع لأحاديث المرجفين^(١).

كما جرت مناقشات مناوئة للسلطة فى الهند فى عهد الإمبراطور اسوكا، ودار أغلبها حول الحدود الممكنة للسلطة من ناحية وللحرية من ناحية ثانية، كذلك لجأ الخوارج العبرانيون إلى الكهوف وأخفوا فيها مخطوطاتهم، وفى أثينا حكم على سقراط بالموت بتهمة إفساد الشباب وتحريضهم على تحدى السلطة^(٢)، واضطهد الرومان المبشرين المسيحيين الأوائل بسبب ما استشعروه من تهديد الدين الجديد لسلطتهم المطلقة.

وعرف التاريخ الإسلامى ألواناً متعددة من الإعلام الرافض أو المناوئ للسلطة، بدءاً من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم قريش والعرب للإسلام، ومقاومتهم له واضطهادهم لأصحابه خوفاً على نفوذهم وسطوتهم فى حال نجاح الدين الجديد، مما اضطر الرسول إلى الهجرة من مكة إلى المدينة عندما حيل بينه وبين الدعوة إلى الإسلام فى مكة.

وعقب الفتنة الكبرى ومقتل ثالث الخلفاء عثمان بن عفان، ثم مقتل الإمام على بن أبى طالب من بعده، وتولى معاوية بن أبى سفيان لأمر الخلافة، عرف التشيع لآل البيت، وبالذات لعلى وآله، واعتمد العلويون على الإعلام المقاوم العلنى والسرى، وكان فى البداية ضد سلطة الأمويين ثم تحول بعد ذلك ضد سلطة العباسيين.

وتكشف لنا الوثائق التاريخية المستوى الرفيع الذى وصلت إليه فنون الإعلام المقاوم على أيدي الفاطميين، ونقل عن المعز لدين الله الفاطمى قوله "ما من جزيرة فى الأرض، ولا إقليم إلا ولنا فيه حجيج دعاة يدعون لنا ويأخذون بيعتنا ويذكرون رجعتنا وينشرون علمنا وينذرون ببأسنا ويبشرون بأماننا، مع تصارييف اللغات واختلاف الألسن، وفى كل جزيرة وإقليم رجال يفهمون وعنهم يأخذون حسب قول الله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾" (٣).

وعندما استولى الفاطميون على السلطة فى المغرب، ثم مدوا سلطتهم إلى مصر وبعض مناطق الشرق العربى، واجههم العباسيون بإعلام مضاد استهدف زعزعة سلطتهم وإثارة الرعية ضدهم، ويصف ابن خلدون فى مقدمته هذا الإعلام العباسى المناوئ للفاطميين فىقول "وكانت أبواق الدولة العباسية يطعنون بالنسب الفاطمى، ويؤلون أعمال الحاكم (يقصد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله) الحسنة تأويلاً سيئاً، فيقولون: منع التزهة على ضفاف النيل، وقطع رزق المنجمين، وهدم بيوتاً، وقتل كلاباً وخنازير، وأراق خوراً، ونحى بعض الموظفين، وقطع إحسانه عن قوم عودهم الإحسان، وجازى بعض التجار" (٤).

وفى أوروبا العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، كان للإعلام المناوئ أو الرافض للسلطة دور كبير فى إثارة الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية، كذلك كان أحد الأسلحة الرئيسية فى كل نزاع ينشب بين الحكام والمحكومين، أو بين الحكام وآخرين طامعون فى الحكم، وقد لجأ الإعلام المقاوم إلى الندوات والاجتماعات والخطب العامة والرسائل السرية وكذلك الإشاعات، وقد شهدت بريطانيا شيئاً كثيراً من ذلك فى الحرب الأهلية التى أسفرت فى القرن السابع عشر عن إعدام الملك شارل الأول فى عام ١٦٤٥ م، كذلك أثناء ثورة عام ١٦٨٨ م، التى أطاحت بعرش الملك جيمس الثانى (٥).

وقد أصبح الإعلام المقاوم أكثر فعالية مع ظهور الطباعة، بما أوجدته من إمكانية ذبوع الأفكار بما يتجاوز كثيراً التأثير المباشر لأصحابها، لذلك كثيراً ما كان إنشاء المطابع محظوراً فى العديد من البلدان الأوروبية حتى بداية القرن الثامن عشر ولا

يسمح به إلا بترخيص من الحكومة، وكانت المطابع تتعرض كثيراً للتدمير^(٦)، وقد وصم الفكر المجدد في الفلسفة بأنه هرطقة وعدم تقوى، وأن كثيراً من الرجال الذين يعتبرون حالياً رواداً للفكر والتنوير، كانوا قد حرموا من نشر أعمالهم وفصلوا من الجامعات وأمرؤا بنبذ أفكارهم تحت تهديد العقاب بالسجن أو حتى بالموت، لقد أقامت ظلمة أوروبا في العصور الوسطى سدوداً منيعة استمرت طويلاً في وجه الاكتشافات العلمية والفكرية، ولكن عندما حل عصر الطباعة والتوزيع الواسع للكتب، لم تستطع أية أوامر عليا من السلطات مقاومة المد الجارف، وأصبح الطريق بعد مشقة ومعاناة، مفتوحاً أمام التحولات العلمية والفكرية التي أدت إلى عصر النهضة والإصلاح الديني^(٧).

وهكذا أصبحت المطابع سلاحاً إعلامياً في أيدي الجماعات المقاومة للسلطة تماماً كما كانت سلاحاً في يد السلطات الحاكمة.

وقد اتخذ الإعلام المقاوم بعداً جديداً بظهور الصحف، ولوحظ تاريخياً أنه كلما وجدت حالة من النزاع السياسي الذي يرتبط بتحد للسلطة القائمة، وجد قطاع من الصحف تقوم بدور الناطق بلسان الرأي العام.

وفي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لعبت المنشورات السياسية المطبوعة والكتب المطبوعة والصحف دوراً ساد الاعتقاد بأنه أساسى في قيام الثورتين الفرنسية والأمريكية^(٨).

وفي تلك الفترة كانت نشاطات الصحف المعارضة تثير السلطة وتهدها في كثير من الأحيان، وقد ردت الحكومات على ذلك بتوقيع الحجز على ممتلكات الصحفيين وتجريدتهم من الحقوق، واتخاذ الإجراءات والقوانين المقيدة لحرية الصحف بما في ذلك سجن الصحفيين.

لذلك كان من الطبيعي أن يطالب خصوم السلطة المطلقة من الصحفيين والمفكرين الأحرار بحرية استخدام المطابع وحرية توزيع إنتاجها، في حين ادعت الحكومات السلطوية أن لها الحق في الرقابة على المطابع باعتبارها الأداة الرئيسية

لنشر الأفكار^(٩)، وفي المقابل فإن القوى المناوئة للسلطة المطلقة كانت تسعى لانتزاع إحدى وسائل التأثير في رأى العام من أيدي السلطات المطلقة وأن تحرمها من احتكار توجيه الرأى العام^(١٠).

وإذا كانت حرية النشر والصحافة قد استقرت بمفهومها الليبرالى الحديث فى غرب أوروبا وفى الولايات المتحدة الأمريكية منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، بحيث لم تعد هناك حاجة جدية للصحافة المقاومة، فتضاءل دورها فى هذه المجتمعات، وإن لم تختف تماماً وخاصة فى ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، ولكن فى المقابل فقد ازدهر دور الإعلام المقاوم فى بقية أنحاء العالم فى ذات الفترة تقريباً واستمر حتى الآن، حيث لم تكن هناك حرية للإعلام والنشر والصحافة فى كافة البلدان الواقعة تحت الحكم المطلق، كما كان الحال فى روسيا القيصرية وفيها بعد فى الاتحاد السوفيتى، كما لم تكن هناك حرية إعلام وصحافة فى مناطق شاسعة فى آسيا وأفريقيا وفى الأمريكتين، التى أصبحت معظم مناطقها مستعمرات للدول الأوروبية، لذلك كان من الطبيعى أن تظهر فى هذه المجتمعات صحف علنية وسرية تقاوم الاحتلال الأجنبى وتدعو للتحرر الوطنى والاستقلال، وقد تعرضت تلك الصحف لجميع أنواع القمع مثل الرقابة والإلغاء والمصادرة للصحف العلنية والمطاردة للصحف السرية^(١١).

ورغم كل تلك العقبات، فقد كان لصحف الرأى الثورية دور فعال فى نجاح حركات التحرر الوطنى أو فى دعم الحركات الاشتراكية فى الدول الرأسمالية أو فى نمو المعارضة الديموقراطية ضد الحكومات السلطوية، وعلى سبيل المثال كانت صحيفة الريسورجيمنتو Risorgimento لكافور، وأيسكرا Iskra للينين، وهاريجان Harijan لغاندى وغيرها من الصحف بمثابة رؤوس الحرية فى ثورة الأفكار، وساعدت على هدم صروح السلطة القائمة، بأن أيقظت الملايين المستسلمة وقتئذ وعبأت قواها، وكانت الصحافة فى تلك الظروف تمثل رسالة أكثر منها مهنة، ولم يقتصر الأمر على تداول الناس لتلك الصحف، بل كان من يعرفون القراءة يتلون ما بها على الأمين، وبذلك تجاوز نفوذها نطاق توزيعها^(١٢).

وقد اضطرت الكثير من هذه الصحف الثورية، المقاومة للسلطة، تحت ضغط الرقابة المشددة والمطاردة المستمرة من قبل السلطات الحاكمة في بعض الدول، إلى الصدور في الخارج والعمل على تهريب نسخها إلى الداخل.

وكان للصحافة العربية تجربة متميزة في هذا المجال، حيث عرفت الهجرة في فترة مبكرة من تاريخها، فقد نشأت الصحافة العربية في عام ١٨٢٨م، حين صدرت بالقاهرة جريدة الوقائع المصرية، في حين أن أول صحيفة عربية مهاجرة ظهرت في عام ١٨٥٥م عندما أصدر رزق الله حسون الحلبي صحيفة مرآة الأحوال في الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، أى بعد سبعة وعشرين عاماً فقط من نشأة الصحافة العربية، وقد أغلقت "مرآة الأحوال" بعد عام واحد فقط من صدورها، لأن الجريدة تضمنت "فصولاً لا تخلو من تقبيح الأتراك والتنديد بأعمال الحكومة العثمانية؛ لأن حسون كان حر الأفكار طويل البال في الإنشاء مر الهجو كالفرزدق، فصمم الباب العالى على إلقاء القبض عليه، ففر هارباً إلى روسيا، فحكم عليه الأتراك حكماً غيابياً بالإعدام، وفي عام ١٨٧٦ وصل حسون إلى لندن وأعاد إصدار جريدته منها وكانت أول صحيفة عربية تهاجر إلى لندن.

وقد اتخذت هجرة الصحافة العربية مساران: الأول: الهجرة الخارجية التي تمثلت في الهجرة من الأقطار العربية إلى خارج الوطن العربى بخاصة إلى بعض دول غرب أوربا وأهمها إنجلترا وفرنسا وإيطاليا، والهجرة الداخلية من قطر عربى إلى قطر عربى آخر تتوفر به مساحة أكبر من الحرية الصحفية، وقد تركزت الهجرة الصحفية العربية الداخلية إلى مصر منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، ثم انتقلت إلى بيروت مع بداية النصف الثانى من القرن العشرين حتى قيام الحرب الأهلية اللبنانية في عام ١٩٧٥م؛ حيث اقتصرت الهجرة على الخارج وتركزت في لندن وباريس وقبرص؛ وذلك حين افتقدت الصحف المناوئة والصحفيين المناوئين لأنظمة الحكم في بلدانهم أى منفذ للحرية الصحفية في المنطقة العربية^(١٣).

٢ - الثورة الإلكترونية فى خدمة الإعلام المقاوم

لقد أضاف الاتصال الإلكتروني وسائل إعلامية جديدة أضيفت إلى الترسانة الإعلامية للحكومات السلطوية، ولكنه وضع بين يدى الجماعات الرافضة أو المناوئة أدوات إعلامية جديدة لمقاومة السلطة القائمة؛ حيث اخترقت الإذاعات السرية والموجهة حصار الاحتكار الذى تفرضه أى دولة على الإعلام داخل حدودها، ولعبت هذه الإذاعات دوراً كبيراً فى الحرب النفسية خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، كذلك استخدمتها حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث كأداة إعلامية لمقاومة الاستعمار، ومن غير الممكن إنكار الدور الذى قامت به إذاعة ثورية موجهة من القاهرة مثل إذاعة "صوت العرب" فى تفعيل حركة التحرر الوطنى العربية. وقد ساعد ذلك على ظهور وانتشار الراديو الترانزستور، كذلك فإن شرائط التسجيل "الصوتى" الصغيرة التى حملت أفكار الإمام الخمينى التى كان يتم تهريبها من مقره فى باريس إلى إيران وتنسخ منها ملايين الأشرطة، قد لعبت دوراً فعالاً فى الإسراع بالثورة على الشاة فى نهاية السبعينيات. وهناك العشرات من مثل هذه الحالات وجدت فى العديد من دول العالم الثالث وفى بعض البلدان العربية.

وبظهور الفيديو وتطور تقنيته وانخفاض تكلفته أمكن للأفراد تصوير أفلام فيديو بكاميرات صغيرة تحتوى على مواد إخبارية وأحداث تم التعتيم عليها إعلامياً وإرسالها إلى وسائل إعلام خارجية تستطيع أن تذيعها على العالم بأسره، ومنذ منتصف الثمانينات تمكن العديد من المصورين الهواة فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا من تصوير أفلام عن حقيقة الأحداث التى تم التعتيم عليها فى هذه

الدول وتهريبها إلى وسائل الإعلام الغربية، وكذلك فعل بعض الفلسطينيين وتمكنوا من فضح الممارسات الإسرائيلية غير الإنسانية ضد شباب الانتفاضة الأولى.

لذلك يمكن القول أن شرائط الكاسيت الصوتية الصغيرة، وكاميرات الفيديو المنزلية اللتان اتسمتا بالطابع الشخصي وغير الرسمي في الاستخدام قد مكنت الفئات الراضية أو المناوئة للسلطة من بناء قنوات اتصال مستقلة بعيدة عن الإعلام الرسمي.

ثم أضافت تكنولوجيا البريد الإلكتروني والفاكس والإنترنت بعداً جديداً للإعلام الراض، حيث استخدمت هذه الأدوات الإعلامية الجديدة في نشر وإذاعة بيانات ومعلومات وتحليلات معادية للسلطة دون أن تتمكن السلطة من معرفة مصدرها أو تحول دون وصولها إلى أعداد متزايدة من مواطنيها.

وكان للإعلام الغربي الإلكتروني دور حاسم في انهيار الاتحاد السوفيتي والحكومات الاشتراكية في دول شرق أوروبا، حيث استطاع أن يستفيد من التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال والإعلام الإذاعي والتلفزيوني، وأن يخترق الحواجز بين الشرق والغرب، وأن ينفذ من الستار الحديدي الذي فرض على شعوب الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوروبا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وأن يدفع تلك الشعوب إلى الانقلاب على النظم الاشتراكية التي تحكمها، وأن تتطلع إلى محاكاة النموذج الغربي في الحياة.

إن البث الإذاعي التلفزيوني الغربي استطاع أن يصل إلى أعداد متزايدة من المستمعين والمشاهدين في الكتلة الشرقية، ولم يكن عامل اللغة يشكل عائقاً دون وصول البرامج الإذاعية الموجهة إلى المستمعين في الكتلة الشرقية، فقد كانت هذه البرامج تقدم بكافة اللغات المستخدمة بين شعوب الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوروبا، بل وبيع بعض اللهجات المحلية، أما التلفزيون فإن طبيعته برامجه التي تعتمد بشكل أساسي على فن الصورة المتحركة، وتقلل كثيراً من أهمية اللغة وإن كانت

لا تلغيها، وكذلك فإن عمليات التشويش على البرامج الإذاعية والتلفزيونية، فقدت منذ بداية الثمانينات جدواها؛ حيث ساعد التطور التكنولوجي لوسائل الاتصال الدولي على ابتكار العديد من الطرق للتحايل عليها فضلاً عن تكاليفها الباهضة التي تصل في بعض الأحيان إلى ما يوازي تكلفة البث الإذاعي والتلفزيوني المراد التشويش عليه، كما أن إيقاف التشويش الإذاعي والتلفزيوني المتبادل بين الشرق والغرب، كان واحداً من أسس الوفاق بين المعسكرين، بل واعتبر من المؤشرات الهامة لإثبات مدى صدق النوايا في استمرار سياسة الوفاق.

ومن المفارقات التاريخية أن الاتحاد السوفيتي كان في مقدمة الدول التي استفادت من اكتشاف إمكانية الموجة القصيرة في البث الإذاعي، فأقامت إذاعة موجهة إلى غرب أوروبا باللغة الإنجليزية، وقد بلغ من تأثير هذه الإذاعة أنها أثارت بريطانيا بحيث سارعت بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٢٧^(١٤).

ولكى ندرك حجم الدور الذي لعبه الإعلام الغربي في انهيار الكتلة الشرقية يكفي أن تشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تبث خمس إذاعات موجهة إلى شعوب الاتحاد السوفيتي وشرق أوروبا وفي مقدمتها إذاعة صوت أمريكا (Voice of America) وهي تحت الإشراف المباشر للحكومة الأمريكية، وتخدمها ١١٣ محطة إرسال في الولايات المتحدة وخارجها، وتذيع ٧٧٦ ساعة أسبوعياً إلى مختلف أنحاء العالم، كانت من بينها ٤٦٠ ساعة موجهة إلى الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوروبا، وتقدم برامجها بخمس وثلاثين لغة، منها ١٧ لغة مستخدمة في الاتحاد السوفيتي وشرق أوروبا^(١٥).

وهناك إذاعة Rias وهي إذاعة أمريكية كانت تبث من برلين الغربية وتعمل ٢٤ ساعة يومياً وهي موجهة بالأساس إلى ألمانيا الشرقية. وهناك إذاعة راديو أوروبا الحرة Radio Free Europe وكانت تبث برامجها من ميونيخ بألمانيا الغربية وتديره اللجنة الوطنية لأوروبا الحرة، وهي لجنة تسيطر عليها المخابرات الأمريكية CIA وتوجه برامجها إلى دول شرق أوروبا. وهناك راديو الحرية Radio Liberty ويبث

برامجه من ميونيخ بألمانيا الغربية ويذيع برامجه بعشرين لغة من اللغات المستخدمة في شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي، وكان يركز على تناول الأحداث التي تقع في الكتلة الشرقية من وجهة نظر غربية.

وهناك أخيراً إذاعة القوات المسلحة الأمريكية التي تبثها القوات الأمريكية المرابطة في ألمانيا الغربية وتغطي برامجها كافة أراضي ألمانيا الشرقية.

أما هيئة الإذاعة البريطانية B.B.C فكانت تذيع ٧٠٠ ساعة أسبوعياً منها حوالي ٣٢٠ ساعة موجهة إلى الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوروبا، وكانت تذيع بعشر لغات من اللغات المستخدمة في الكتلة الشرقية وتستخدم ٧٠ محطة إرسال داخل انجلترا وخارجها.

ولم تكن تخلو دولة من دول المعسكر الغربي وبالذات دول غرب أوروبا من إذاعة موجهة إلى الكتلة الشرقية.

وبالنسبة للتلفزيون فقد كان إرسال محطات التلفزيون في ألمانيا الغربية يغطي كامل أراضي ألمانيا الشرقية، كذلك فإن الإرسال التلفزيوني في دول غرب أوروبا كان يغطي مساحات غير قليلة من دول الكتلة الشرقية المتاخمة لها، وقد أقامت دول غرب أوروبا محطات تقوية للإرسال التلفزيوني بالقرب من حدودها مع دول الكتلة الشرقية، وهو الأمر الذي مكن هذا الإرسال من الوصول بوضوح إلى العديد من المناطق في دول شرق أوروبا^(١٦).

وكانت المحطات الإذاعية والتلفزيونية الغربية تحرص على تقديم تغطية إخبارية للأحداث بشكل عام وللأحداث في الكتلة الشرقية بشكل خاص من وجهة نظر غربية وبأسلوب يوحي بأن القرار في الدول الاشتراكية يتم في غير صالح شعوب هذه الدول، والترويج للأفكار الليبرالية واقتصاد السوق والتعددية السياسية وفي الوقت نفسه إبراز مساوئ الاشتراكية، وتقديم صورة جذابة لأسلوب الحياة في المجتمعات الغربية. وفي الوقت نفسه تقديم صورة سلبية لأسلوب الحياة في المجتمعات الاشتراكية مع التركيز على افتقار الحريات وعدم توافر أدوات الرفاهية.

وقد اعترف الرئيس السوفيتى السابق ميخائيل جورباتشوف فى كتابه (البروسترويكا) بخطورة الدور الذى لعبه الإعلام الأمريكى فى التأثير على شعوب الاتحاد السوفيتى وذلك بقوله: "إن الإعلام الأمريكى يصور للمواطنين السوفيت أن أمريكا هى الجيل المتألى، فى حين يصور الاتحاد السوفيتى باعتباره إمبراطورية الشر" (١٧).

٣ - تجربة حرب الخليج والإعلام المناوئ

وتقدم لنا حرب الخليج التي وقعت بعد الاجتياح العراقى للكويت فى ٢ أغسطس ١٩٩٠م، تجربة متميزة فى استخدام الإعلام المناوئ، سواء من جانب العراق أو دول التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث غلب على الممارسة الإعلامية طابع الدعاية والحرب النفسية، ومن المهم أن نشير فى هذا الصدد أن الإعلام يقوم على الحقائق وحدها فى حين لا تكتفى الدعاية بالحقائق فقط وإنما قد تضيف إليها أو تحذف منها بعض التفاصيل بهدف التهويل أو التهوين، أما الحرب النفسية فهى تنحو غالباً إلى الكذب والتلفيق والإشاعات بهدف إثارة الخوف والذعر والإرهاب.

لقد لجأ العراق مثلاً إلى استخدام أساليب الدعاية والحرب النفسية فضخم من حجم وخطورة ما يملكه من أسلحة دمار كيمياوية وصواريخ بعيدة المدى بهدف إثارة الخوف والذعر بين دول الخليج من ناحية ولإثراء دول التحالف عن التصدى العسكرى للعراق من ناحية ثانية، كذلك روج العراق إشاعات عن وجود طائرات له فى كل من اليمن والسودان محملة بالأسلحة الكيماوية ومستعدة للهجوم على المملكة العربية السعودية ومصر، قاصداً بذلك إضعاف تصميم الدولتين على التدخل لصالح الكويت. وعندما روجت بعض وسائل الإعلام الكويتية والعربية والغربية معلومات عن ارتكاب القوات العراقية فى الكويت لتجاوزات ضد الشعب الكويتى، لم يتصد الإعلام العراقى لنفى تلك الممارسات والتجاوزات وصمت عن التعليق عليها، وفى الوقت نفسه أوعز إلى بعض وسائل الإعلام الموالية له داخل الكويت وخارجها، وخاصة بعض الصحف العربية التى كانت تصدر فى

لندن وباريس بتأكيد هذه التجاوزات والتضخيم منها بقصد إثارة الذعر بين الكويتيين المعارضين له داخل الكويت لدفعهم إلى الهرب من الكويت، وتخويف الكويتيين في الخارج من مجرد التفكير في العودة إليها.

وقد استفاد العراق من التطور في تكنولوجيا الاتصال الإذاعي والتليفزيوني بحيث تمكن أن يصل بإرساله الإذاعي إلى أبعد من حدوده الوطنية، وقد تمكن العراق أن يزيد من قدراته الإذاعية فأصبح يملك قبيل الحرب ٢٤ استديو إذاعياً بعد أن كانت ثلاثة استديوهات في بداية السبعينات، وأصبح الإرسال الإذاعي يرتبط بشبكة ميكروويف بعد أن كان يتم بواسطة الكابلات الأرضية وقد هيا هذا التطور الفرصة لإيصال البث الإذاعي إلى أماكن بعيدة، وبعد أن كان العراق يفقد إلى الفنيين المؤهلين، تم توفير العديد منهم عن طريق البعثات الخارجية واتفاقيات التعاون الإذاعي مع الاتحاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الديمقراطية (سابقاً)، وبعد أن كانت الخدمة الإذاعية قاصرة على البث المحلى باللغة العربية وحدها، أنشأ العراق العديد من الخدمات الإذاعية الموجهة إلى مختلف دول العالم باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والفارسية والعبرية والكروية والأوروبية، كذلك قام العراق بإنشاء مجمع إرسال بابل الإذاعي الذي يشمل على عدة محطات إرسال بالموجات المتوسطة والقصيرة، تزيد قدرة كل منها على ألف وات، وقد مكنه هذا المجمع من تغطية مساحات واسعة في الأردن وفلسطين بالبث النهاري، وتغطية الأقطار العربية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط حتى مدينة الجزائر بالبث الليلي، واستخدم الموجة القصيرة في تغطية معظم أنحاء العالم وخاصة في أوروبا وآسيا وإفريقيا والأمريكيتين بالبث الإذاعي، وبهذه الإمكانيات الإذاعية تمكن العراق خلال أزمة الخليج من إقامة خدمات إذاعية موجهة جديدة مكنته من إيصال صوته إلى الشعوب التي يود التأثير على الرأي العام فيها لصالحه، فزاد من ساعات إذاعة (صوت الجماهير) وأصبحت تعمل على مدار الأربع والعشرين ساعة في اليوم، وزاد من نطاق إرسالها بحيث أصبحت تسمع في كافة أنحاء العالم العربي، وأنشأ العراق أيضاً إذاعة (المدينة المنورة) ووجهها إلى

المملكة العربية السعودية، وإذاعة (الخليج والجزيرة العربية) ووجهها إلى دول الخليج واليمن، وإذاعة (مصر العربية) ووجهها إلى مصر، كذلك أنشأ العراق إذاعة (صوت السلام Voice of Peace) باللغة الإنجليزية ووجهها إلى الجنود الأجانب في قوات التحالف التي تجمعت على أرض السعودية وبعض دول الخليج تمهيداً للاشتراك في الحرب على العراق.

وبالنسبة للخدمة التلفزيونية، فقد كان العراق لا يملك سوى استديو تلفزيوني واحد في مطلع السبعينات فأصبح له ٢٠ استديو تلفزيونياً مجهزة بأحدث تكنولوجيا، ولم يكن العراق يملك سوى عربة نقل خارجي واحدة، فأصبح له قبيل الحرب أكثر من ثلاثين سيارة مجهزة بأحدث مستلزمات الاستديو التلفزيوني المتنقل، وأصبح للعراق ست محطات للبث التلفزيوني في بغداد والبصرة وكركوك ونيوى وميسان والمثنى، بالإضافة إلى ٤٠ محطة تقوية؛ بحيث تمكن العراق من تغطية كافة أنحاء العراق بالخدمة التلفزيونية، وبفضل محطات التقوية أصبح الإرسال التلفزيوني العراقي يمكن مشاهدته في مناطق عديدة قريبة منه في دول الخليج العربية وإيران.

كذلك فقد نجح العراق في الاستفادة من ظاهرة الصحف العربية التي تصدر في أوروبا خاصة تلك التي تصدر في لندن وباريس وتوزع في العالم العربي وبين العرب الذين يعيشون في أوروبا، فتمكن من إصدار بعض الصحف، كما شارك في تمويل البعض الآخر، كما استطاع كسب تأييد العديد من الأقلام في بعض الصحف التي تصدر في البلدان العربية.

أما على الناحية الأخرى فلم تُقصر دول التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية في استخدام وسائل الإعلام في الدعاية والحرب النفسية ضد العراق، وعلى سبيل المثال، ففي الأسابيع الأولى من وقوع الاجتياح العراقي للكويت، وقبل أن تستكمل قوات التحالف الاستعدادات للتدخل العسكري، روجت بعض وسائل الإعلام الغربية معلومات عن وجود نية لاستخدام أسلحة نووية نظيفة ضد العراق في حالة شروعه في التحرك ضد السعودية أو بعض دول الخليج العربية

الأخرى، وكان الهدف من تسريب هذه المعلومات ردع العراق عند التفكير في توسيع نطاق اجتياحه إلى دول أخرى بالمنطقة.

وقد كشفت تجربة أزمة الخليج أن ما يملكه العراق - في ذلك الوقت - من نظم اتصال وإعلام لم تكن بالمستوى الذى يؤهله للدخول في مواجهة مع الإعلام الغربى، لذلك لم يكن غريباً أن يتم التشويش بنجاح على إرسال الخدمات الإذاعية العراقية الموجهة إلى الخارج بعد أسابيع قليلة من بداية الأزمة بحث تم خنق صوت العراق داخل حدوده الجغرافية، بل أن الإمكانيات التكنولوجية المتقدمة في مجال الاتصال والإعلام لدى الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية المشاركة في التحالف مكنتها من اختراق الأجواء العراقية، فأضعفت من أثر أجهزة التشويش العراقية على إرسال الإذاعات الموجهة ضد العراق من ناحية، ومكنت العديد من الإذاعات الغربية المعادية للعراق من أن تسمع بوضوح في كافة أنحاء العراق، وهو الأمر الذى كان له أثر كبير في إضعاف فعالية وتأثير الإعلام العراقى في الداخل والخارج على حد سواء.

وعلى سبيل المثال فقد حاول العراق استخدام إرساله التليفزيونى الذى كان يغطى مساحات غير قليلة من مناطق حدوده المشتركة مع السعودية، حيث كانت تتجمع قوات التحالف، للتأثير على معنويات الجنود العرب المشاركين في قوات التحالف والمعسكرين على طول الجبهة مع الكويت والعراق وخاصة الجنود المصريين، لذلك أسرع مصر باستخدام القناة غزيرة الإشعاع بالقمر الصناعى العربى (عربسات) لكى تبث من خلالها برامج التليفزيون المصرى إلى جنودها في المنطقة، وقد أمكن بالفعل استقبال هذا البث من القمر مباشرة عن طريق هوائيات خاصة أو استقباله بالطريقة العادية من خلال تليفزيون البحرين الذى كان يستقبل الإرسال المصرى من عربسات ثم يعيد بثه من خلال محطته الأرضية إلى أجهزة التليفزيون المنزلية.

كذلك لا يمكن إغفال أهمية القرار الفرنسى بإيقاف أربع عشرة صحيفة عربية كانت تصدر في باريس مؤيدة للعراق، باعتبارها صحفاً تروج لدولة في حالة حرب مع فرنسا، وقد حرم هذا القرار العراق من أدواته الصحفية المؤثرة.

ولاشك أن الثورة التكنولوجية في مجال الاتصال والمعلومات - وكانت في أوجها في ذلك الوقت - قد وضعت المبادرة الإعلامية في أيدي وسائل الإعلام الغربية وبخاصة وسائل الإعلام الأمريكية، ويكفي في هذا المجال أ، نشير إلى فرع واحد من هذا التقدم الإعلامي الغربي، وهو البث المباشر عبر الأقمار الصناعية وإلى وسيلة واحدة من بين عشرات أو مئات من وسائل الإعلام الغربية التي شاركت في التغطية الإعلامية لأزمة الخليج وهي شبكة (الكابل الإخباري الأمريكي Cable News Network) أو (سى - إن - إن C.N.N) والتي تذيع من مدينة أطلنطا بولاية جورجيا التي كانت تعمل على مدار الأربع والعشرين ساعة يومياً، وكانت تبث أخبارها - في ذلك الوقت - إلى عشرة ملايين مشترك بها وربع مليون فندق وسفارة وشركة للتجارة والأعمال والبورصات خارج الولايات المتحدة الأمريكية فقط، وقد وصل إرسالها خلال أزمة الخليج إلى الاتحاد السوفيتي وإفريقيا الشرق الأوسط واليابان، بالإضافة إلى الولايات المتحدة وكندا وأوروبا، وكانت تبث أحداث الخليج مباشرة وفي وقت حدوثها، وتابع الملايين في أنحاء متفرقة من العالم مراسلي الشبكة وهم يسجلون ويصورون من فندقهم في بغداد طائرات دول التحالف وهي تُغير على المواقع العراقية، وقد بلغ تأثير هذه الشبكة خلال حرب الخليج من القوة إلى الحد الذي أبقى فيه العراق على مراسلي الشبكة في بغداد، في حين طرد كافة مراسلي وسائل الإعلام العربية والأجنبية، وحين وجد العراق نفسه محاصراً إعلامياً لم يجد وسيلة إعلامية يخاطب من خلالها الرأي العام العالمي، سوى هذه الشبكة الإخبارية الأمريكية ووفق شروطها بالطبع!

ولعلها لم تكن مصادفة أن توفر أحداث الخليج الفرصة لبدء المشهد الافتتاحي للإعلان عن ظهور النظام الإعلامي الدولي الجديد، حيث مارس الإعلام الغربي تحت قيادة الإعلام الأمريكي قدرته على السيطرة على الإعلام الدولي دون وجود منافس ينافسه على تلك السيطرة، لذلك فإن نجاح الإعلام الغربي الأمريكي في تجميع الرأي العام العالمي على موقف موحد تجاه قضية سياسية، وهي هنا أدانه العدوان العراقي على الكويت يعتبر من الأحداث الإعلامية النادرة منذ نهاية

الحرب العالمية الثانية؛ ذلك أن الصراع بين النظامين الإعلاميين الشرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي والغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية كان يحول دون انفراد أى منهما بتوجيه الرأى العام العالمى، خاصة فى القضايا السياسية.

وطوال القرن العشرين حتى الآن فإن احتكار وسائل الإعلام الجماهيرية من قبل السلطة فى العديد من الدول الاستبدادية يخترق من قبل وسائل اتصال أخرى، وإذا تنتقل الأنباء والأفكار بالحديث الشفوى الشخصى أو الجمعى، وتوزع المنشورات غير القانونية، وقد تكون هذه الوسائل تقليدية أو بدائية إلا أنها ما تزال تحتفظ بحيويتها، ويزيد القمع والرقابة من مدى تصديق الناس لها. وتقدم لنا تجربة انتشار الفكر السياسى والدينى والمتطرف فى مصر فى ربع القرن الأخير - بصرف النظر عن الاختلاف فى تقدير مدى هذا الانتشار - نموذجاً مثالياً لكيفية اختراق الإعلام الرافض أو المناوئ لاحتكار السلطة لوسائل الإعلام فى المجتمع.

هوامش الفصل الثالث

- ١ - جيس هنرى برستيد: انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخرى، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٩٠، وعبد القادر حاتم، الرأى العام وتأثره بالدعاية والإعلان، ص ١٦، ١٧.
- ٢ - شون ماكبرايد: أصوات متعددة وعالم واحد - الاتصال والمجتمع اليوم وغداً، ص ٣٥.
- ٣ - عبد القادر حاتم: الرأى العام وتأثره بالإعلام والدعاية، ص ٢٨.
- ٤ - لمزيد من التفاصيل انظر مقدمة ابن خلدون، ص ٢١٦، والحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عنان، ص ١٦٨، والدروز ظاهرهم وباطنهم لمحمد على الزغبى، ص ٤٤.
- 5- Laski . Harold: The Rise of European Liberalism. P.P. 203-211.
- 6- Faster . Heil: Communication In History. P.P. 73-76.
- ٧ - شون . ماكبرايد: أصوات متعددة وعالم واحد، ص ٣٥-٣٦.
- ٨ - جيهان رشتى: ص ٢٠.
- 9- Evans . Harold: Liberty and Licence: Heineman. London. 3rd Edition. 2002. P.P. 42-47.
- 10-Crossett . John: Liberal and Conservative. Free Press. M.S.A. 2001. P.P. 62-67.
- 11-Row . Koland: Communication and Change. Heineman. London. 2003. P.P. 117-119.
- ١٢ - شون . ماكبرايد: أصوات متعددة وعالم واحد، ص ٣٩.
- ١٣ - لمزيد من التفاصيل انظر فاروق أبو زيد: الصحافة العربية المهاجرة، الطبعة الثانية، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٢.
- ١٤ - سهير بركات: الإذاعة الدولية، الكويت، ١٩٧٨، ص ٢١-٢٤.
- ١٥ - د. ر. ماننيكار: التدفق الحر من جانب واحد، ترجمة فائق فهميم، اليونسكو، ص ٦٩.
- 16-Burto. Paulu: Radio and Television Broadcasting on The European Continent. University of Minnesota Press. 3rd Edition. U.S. 2003. P.P. 73-78.
- ١٧ - جورباتشوف. بيروسترويكاز: ترجمة وليد مصطفى وآخرين، دار الكرنك للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، عمان ١٩٨٩، ص ٢٢٣-٢٢٤.